الأربعاء 01 سبتمبر 2010 / الموافق لـ 22 رمضان 1431 هـ / العدد 3043

الشيخ بن حنفية العابدين مسؤول جمعية العلماء بولاية معسكر لـ الشروق

لا نهضة حقيقية للجزائر إلا إذا خدمها جميع الأطراف دون إقصاء

في طريقي إلى بيت الشيخ بن حنفية العابدين أشار الشيخ محمد بلقرد إلى سيارة يقودها ذو لحية كبيرة غلب عليها الشيب (هو شيخ -كما قال- متقاعد) فقال له بعد السلام «أوصله إلى دار الشيخ بن حنفية»، وفور امتطائي السيارة قال لي ذلك الشيخ «أنت ذاهب إلى الشيخ الذي أمضى لي شهادة حفظ القرآن؟!»، سألته: «متى كان ذلك؟»، قال: «من زمن ليس بالطويل فلقد حفظت القرآن متأخرا، وأنا كما ترى شيخ كبير.. والقضية تكمن في الإرادة لا غير!».. وصلنا باب البيت، وأطل علينا الشيخ ببسمة مشرقة وسلام وترحيب، (وكنت كلمته قبل ذلك بالهاتف) فلما رأيته، رحت أقول بيني وبين نفسي هل هو بالفعل من مواليد 1948؟ في الثانية والستين من عمره، ولحيته لا تحوي إلا على شعيرات قليلة من الشيب.. بينما أصبحت لحيتي شبه بيضاء وأنا أصغر منه بأكثر من عشر سنوات؟!

حاوره: الصادق سلايمية

الأقدار وحدها هي التي ساقت الشيخ إلى أن يسلك مسلك الفقهاء.. وهو الذي كان يتمنى -كما قال- بحكم ذرابة لسانه ونصاعة بيانه وتذوقه الرفيع للأدب أن يصبح شاعرا أو كاتبا روائيا قاصا.. لا أطيل على القارئ فها هو الشيخ بن حنفية العابدين وجها لوجه مع قراء الشروق.

●● الشروق: يسر جريدة الشروق اليومي أن تلتقي بأحد الشخصيات العلمية المهمة على المستوى القطري والممثلة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة الأمير عبد القادر (رحمه الله) فارس الستانين القلم والسيف... حدثونا بداية عن نشأتكم وتحصيلكم وكتبكم.

○○ بداية أرحب بكم في بيتكم، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا اللقاء نافعا ومفيدا وأن يبارك في أعمال الخير والصلاح.. أما عن التعريف بي فإني أؤثر ألا أتكلم عن نفسي لأنني قد لا أجد ما أذكره عن شخصيتي المتواضعة؛ وللتبيان الضروري للقراء أقول أنا (أعوذ بالله من «الأنا») من مواليد 1948 تلقيت تعليمي وحفظ القرآن الكريم على يد مشايخ من المغرب، وكانت العادة جارية يومئذ أن الناس يعقدون مع حفاظ القرآن الكريم مشارطة، بمقتضاها يعلّمون أولادهم، وقد جعل لي والدي (رحمه الله) معلّما خاصا، وكان أهل البلدة والمجاورين لنا يأتوننا في البادية ليحفظوا معي القرآن الكريم.

●● باديتكم قريبة من معسكر؟

○○ كلا، هي في سعيدة.. ثم بعد ذلك عندما قامت الثورة الجهادية سافر شيخي المغربي الشيخ عبد الرحمن (رحمه الله) الذي حفظني جزءا من القرآن إلى المغرب بحكم الظروف التي جدت، فواصلت بعده الحفظ على يد ابن عمي الذي حفظني نحو ثلث القرآن، ثم التحق بدوره بالثوار رغبة في ثواب الجهاد والاستشهاد فكان له ما أراد (تقبله الله في قائمة الشهداء والصديقين)، ولما جاء دور والدي للخروج إلى الجهاد على عقب ابن أخيه ذهب بي إلى مدينة سعيدة لأواصل حفظي، ولم يدخلني المدرسة يومئذ.. وكان كثيرا ما يردد بأن المحتاج إليه بعد تحرير الوطن وطرد المستعمر في ظل الدولة المنشودة ليس هذا النمط الإفرنجي من التعليم، بل سيكون للقرآن الكريم فيها القدح المعلى فلم يدخلني المدرسة. فأكملت حفظ القرآن في مدينة سعيدة، وعندما خرج من السجن الفرنسي سنة 1960 اجتهد في نقلي إلى معلم آخر، فحفظت القرآن على يدي هذا الأخير وأنا ابن 11 سنة، وإبان استرجاع الجزائر استقلالها سنة 1962 بعث بي إلى سيدي بلعباس لإتقان الحفظ في مدرسة حرة غير تابعة لمدرسة الجمعية؛ فأتقنت الحفظ وصرت أرتاد مدرسة جمعية العلماء.. والغرب الجزائري يومئذ لا تخلو مدينة من مدنه الكبرى من مدرسة على الأقل تابعة لجمعية العلماء، وكانت المدرسة غالبا تبنى إلى جوار المسجد.. أذكر المسجد في سنة 1962 (وهو لا يزال إلى اليوم) كان اسمه «مسجد التربية والتعليم» لأن هناك أقساما دراسية تابعة للمسجد، فكنت أرتاد هذا المسجد؛ ولكم استفدت فيه من حلقات هي بمثابة الزاد الأساس على يد المشايخ الذين كانوا يدرسون في مدينة بلعباس، وكثيرا ما كنت أقول أن عدد الحلقات العلمية القارة التي كانت متوفرة في ذلك الوقت لا يوجد

حضوري لـ18 ملتقى من ملتقيات الفكر الإسلامي كان بمثابة التكوين الجامعي الطويل المدى

مثلها اليوم على رغم توفر الوسائل والمساجد في هذا العصر. ففي بلعباس وحدها اليوم أكثر من 50 مسجدا، ولم يكن فيها آنذاك سوى مسجدين.

●● إلى ما يعود هذا التخلي اليوم عن النشاط الذي ذكرتموه؟

○○ يبدو لي أن الناس صاروا يكتفون بالدروس العابرة والمحاضرات الدورية، على عكس الماضي، حيث كان الشيوخ يقومون بتدريس كتب بعينها، كمختصر خليل والرسالة وقطر الندى وألفية ابن مالك ولامية الأفعال، ويواظب الناس على حضورها وإتمام فهمها على يد هؤلاء الشيوخ، مثل التعليم الجامعي تماما، حاليا الذي يسلك هذا المسلك القديم في التعليم، فالطالب يكلف بدراسة كتاب أو جزء من كتاب.

●● ثم أين أتممتم الدراسة؟

○○ دخلت المعهد الإسلامي في مدينة بلعباس، وهي المعاهد التي أنشئت بعد الاستقلال في عهد أول وزير للأوقاف الشيخ توفيق المدني (رحمه الله)، فتلقيت دروسا طوال أربع سنوات على يد الرعيل الأول من الأزهريين، وكانوا شيوخا بارزين.

●● يبدو أن هذا أفضل من التكوين الجامعي الآن؟

○○ أحسب ذلك والله أعلم! فمثلا في السنة الثانية كنت أجد حلاوة كبيرة في مدارسة «النحو الوافي» (وهو كتاب في الحقيقة جامعي)، بيد أنني كنت مشوقا، وأنا أقرأ هذا الكتاب، وكان الطالب آنذاك يقف فيخطب ببلاغة ملفتة للنظر، برباطة جأش وثبات كبيرين، وكان الشيوخ في مدرسة التربية والتعليم يلقون خطبة الجمعة ويسندون إلينا إلقاء الدرس الذي يسبق الخطبة؛ وأوائل الدروس التي أقمتها هنالك، ولم أكن أتجاوز 16 و17 سنة.. كنت أعتمد في إلقائها وإغنائها على تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس (رحمه الله) الذي جمعه الشيخ محمد الصالح رمضان (رحمه الله)، حيث اقتنيته وسني لا يتجاوز 14 سنة، وهو من بين الكتب التي تأثرت بها في أسلوب التفسير ووضوح العبارة ورشاقتها وبساطتها وسهولتها ولا يجب أن يفهم القارئ أن البساطة هي تكرار للسهولة بل هي تدل على الاتساع بدليل قوله تعالى: "وآتيناه بسطة في العلم والجسم"، وقد طبع الشيخ شيبان (حفظه الله) هذا الكتاب حين كان على رأس الوزارة واعتنى عناية كبيرة بآثار ابن باديس، فكان في كل عام يصدر كتابا من آثاره بإشراف الشيخ محمد الصالح الصديق، ثم توقفت هذه العناية في الجزء السادس أو السابع منذ نحوي 12 أو 14 سنة خلت.

وبعد التخرج (في السبعينيات من القرن الماضي) التحقت بالتعليم الابتدائي، مواصلا في نفس الوقت الدراسة الجامعية بمعهد الآداب بوهران، وكانت تتميز بفوضى تنظيمية لم تعجبني، فانتقلت إلى معهد علوم الأرض لأنني رأيت بها الجدية في النظام والتنظيم، وتخرجت بدبلوم في علوم الأرض كالجغرافية العامة وجغرافية الخرائط.

●● هل ساعدتكم هذه الدراسة على معرفة أكثر للعالم الإسلامي؟

○○ صرنا نعرف حتى الجزر الصغيرة التي وصل إليها الإسلام، وارتفع فيها صوت الأذان بفضل أولئك التجار الدعاة. بل كان بحثي الذي قدمته في ختام الدراسة هو قراءة في خارطة الاتحاد السوفيتي يومها، حيث ابتلع الجمهوريات الإسلامية التي انفصل بعضها عنه بعد سقوطه وبعضها لا يزال وبعضها يكافح بجهد المقل كالشيشان.

وانتقلت إلى التعليم، وبقي التكوين الشخصي مستمرا بما يتماشى ورغباتي الشخصية في تحصيل علوم الدين.. كنت أقول لبعض زملائي: «لقد نلت شيئا من علوم الأرض، وأخشى ألا أنال شيئا من علوم السماء». عينت أستاذا بتيارت مدة ثم مفتشا في معهد مولود قاسم هنا بمعسكر، وكان الناس ينظرون إلى الموظف المسؤول مثلي في القطاع الديني على أنه عالم، ولو لم يكن من أهل العلم؛ فعكفت لهذا السبب على بيضة التحصيل العلمي التي فرخت بعض «الفلاليس» المتواضعة التي هي عبارة عن رسائل وكتيبات آرائي لم أكرر فيها ما قاله غيري.

●● إذن الوظيفة المحسوبة على القطاع الديني هي التي غيرت مسيركم بمائة وثمانين درجة؟

○○ وهو كذلك حيث تلافيت النقص المسجل على مستوى إدراكي (ولا أزال أتلافى) والحقيقة أنني اتجهت ضد طبعي ومواهبي، حيث كنت ذا ميل إلى قول الشعر وأكتب شيئا من القصة التي تخدم الغرض الشرعي، ولدي بعضها هنا في الرفوف كمخطوط لم تنشر وهي ترجع إلى السبعينيات، وتنمية تحصيلي الديني له أرضية صلبة في نفسي من خلال حفظي للقرآن الكريم وحضور الحلقات والدروس بين يدي الأساتذة في بلعباس؛ فضلا عن أن الموهبة الأدبية طريق إلى الإبداع في علوم الدين، ولا أعتقد أن عديم الذوق في التفاعل مع الآيات البينات تلاوة وبلاغة، والذي لا يقف على أساس متين من فهم لغة القرآن، قادر على أن يحصل على شيء ذي بال من المعارف في الإسلام ولو اجتهد في ذلك الاجتهاد الطويل.. كما أن حضوري لثمانية عشر ملتقى من ملتقيات الفكر الإسلامي كان بمثابة التكوين الجامعي الطويل المدى، حيث استمعنا فيها إلى مئات المحاضرات إن لم أقل 1000 محاضرة.. وتصوّر ملتقى يدوم 15 يوما بمحاضراته وتعقيباته وأسئلته وأجوبته ومخالطة الأساتذة، هو فيما أقدر بمثابة سنة جامعية بالنسبة إلى المهتمين بالتحصيل.. أما الفضوليون – وما أكثرهم- الذين تصك آذانهم تلك المحاضرات وهم في شغل عن الإدراك والاستيعاب فلا ينتفعون حتى بالرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه وهو يعلم الناس! وقد ذكر الله هؤلاء القوم (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا؟).. لقد حضرت 18 ملتقى إسلاميا منظما ومستمعا بما يعادل -كما قلت آنفا18 – سنة من التكوين الجامعي، بالإضافة إلى ذلك استفدت من الرحلات التي قمت بها إلى السعودية ثم حلقات أهل العلم.

●● المهم أن كل ذلك أثمر عدة رسائل وكتب؟

○○ أريد أن أقول لك شيئا هو أنني لا أريد أن أضيف رقما إلى المكتبة هو موجود، فالتأليف هو الإتيان بالجديد فيما يتعلق بالأمور التي يحتاج إليها الناس، وكل الأمور التي كتبتها وهي متواضعة كانت وراءها حاجة ملحة وراء كتابتها.

●● هل هناك مثال حي يفيد القراء؟

○○ من بين ما كتبت: «درء الشكوك عن أحكام التروك» عن السنة التركية، (وهي الأمور التي تركها النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يفعلها)، لأني رأيت إزاءها قطاعا كبيرا من الناس لا يولونها كبير اهتمام؛ وقد أردت أن أبين ما هي التروك التي تعتمد حجة وما هي التروك التي ليست حجة؟ لأن الكثير من المحدثات والبدع يعللون إتيانها بأن النبي لم يفعلها إشفاقا على أمته، وتحت هذا الغطاء تمرر الكثير من الأشياء.. فكتبت هذا الكتاب ورميت به إلى أن أبين أقسام التروك وأبين في الوقت نفسه متى يكون الترك -مثلا- لا يسع مخالفته، ومتى يكون الترك لأمر آخر، وهو كتاب تقعيد وتأصيل ويحتاج إلى بذل الجهد.

من بين ما كتبت أيضا رسالة بعنوان «كيف نخدم الفقه المالكي؟» لأوضح أن بعض الناس يدعون إلى الفقه المالكي دون جهد، أو يدعون إليه متعصبين وهم يريدون أن يغطوا بهذا الغطاء، وهو خدمة الفقه المالكي ما هم عليه من باطل ومخالفات.. فينصبون هذه الخيمة ويدخلون تحتها ما شاؤوا. فبينت أولا أن هذا الفقه لا ينبغي أن يظن به أنه هو ما عليه مختصر خليل وكأن هذا هو الفقه الذي لا تسوغ مخالفته، وهذا المصنف الذي هو مرجع «مختصر خليل» وقلّ نظيره في العالم الإسلامي بشهادة كبار العلماء، هو اجتهد في أن يأتي بما في المدونة وفهوم العلماء؛ وكذلك ما هي الرسالة وما في ابن عاشر أو ما في المشماوية ونحو ذلك.. بينت كيف نخدم الفقه المالكي.

●● كتابكم «العجالة في شرح الرسالة» لقي ردود أفعال ونوقش بين سخط ورضا وشدة عليه ولين، لماذا؟

○○ عندما صدر «كيف نخدم الفقه المالكي»، قرأ الناس مضمونه من عنوانه -وكم تزل الأحكام بمجرد قراءة العناوين- !، فقالوا عني هذا «متعصب»، دون أن يبحثوا في الجوهر والمضمون، فقلت لبعض إخواني شبابا وشيوخا، لا ضير أنا في بلادي الجزائر أرى بأنني أدرس مذهب مالك بدل أن أدرس مذهب الإمام أحمد بن حنبل.. ما هو الفرق بين مالك وابن حنبل في هذا المجال؟ عندنا مثلا كتاب «زاد المستقنع»، (وهو كتاب فقه للحنابلة نفيس، شرحه بعض أهل العلم في القديم والحديث)، وأنا أقول ما المانع أن ندرس رسالة ابن أبي زيد أو مختصر خليل؟ فيجيبك بعضهم بأنه ليس لدينا شرح، وزارة الشؤون الدينية تقول للأئمة درسوا الرسالة، وشروح الرسالة لا تجد فيها كتابا يستأنس بالاستدلال.

●● كيف ترون استرجاع مصداقية جمعية العلماء في ظل تحفظ الناس من العمل الإسلامي السياسي؟

○○ أخوك هذا عنده في هذه المسألة كلام كثير، لكن لم أجد من عرج عليه من الذين يعنون بالدعوة.. وهو أن خدمة الإسلام وخدمة الأمة في الوقت نفسه يجب أن يخاض من أجلها في المجتمع المدني، والدعاة إلى الله ما يزالون يتهيبون الخوض في هذا المجال وهو الذي يفتح لك آفاقا واسعة.. أرى أن التركيز في هذا العصر والاجتهاد في خدمة الإسلام ليس في إعادة إنتاج المنتج، فأحدهم يأتيك بنظرية فلان في كذا ومنهج علان في كذا، وهذه المسألة بلغت حد التخمة والدعاة ينبغي أن يجتهدوا في الوسائل، وأعظم الوسائل لخدمة الأغراض حقا كانت أو باطلا هي الجمعيات. وجمعية العلماء يمكن أن تحقق الكثير من الأغراض مثل محاربة البدعة المحرمة بأصول الشرع وبث الوعي الصحيح بالدين ومحاربة الآفات الاجتماعية. وهذا القانون الأساس لا غبار عليه، والمسألة في هذا الشأن في الرجال الذين يكونون ذوي بصيرة شرعية ومعرفة بالواقع وحنكة في التدرج، وثقة عند الجماهير.. فخوض المجتمع المدني أولا وأخيرا لابد أن يكون برجال من طراز الكوكبة الأولى من جمعية العلماء.

●● للسيد وزير الشؤون الدينية مراسلة للشيخ شيبان بشأن من تزكيه الجمعية للتدريس في المساجد يمكن أن يدرس ما مدى جدواها في الواقع؟

○○ تريد أن أصارحك؟! ليس لي حاليا نشاط في مسجد مع أنني طيلة مسيرتي المهنية لم يسجل علي خلل إداري ولا علمي ولا أمني، ولكنني «وهابي»!! وقد وقفتم على زيف هذه التهمة، ووالله لا تقوم قائمة لهذه الأمة إلا إذا خدمها جميع الأطراف.

●● ماذا تقولون لمعالي وزير الشؤون الدينية بهذا الصدد؟

○○ أقول له (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) وليعلم معالي الوزير أن الذي يكون في وظيفة وزارية أو دونها من الوظائف العامة هو مسؤول عن جميع أبناء بلده، ولا ينبغي أن يتصرف وكأنه مدير قبيلة أو طائفة.. فهو للجميع، وإن كان هناك خلل فالتقصير من الدولة.. وأرى أن جيل الثورة يكاد أن ينقرض والفساد هو الغالب على جيل الاستقلال فمن المسؤول؟!!.